الرحالة الفرنسيون والدولة العثمانية

الدكتور مصطفى الغاشي

كلية الآداب – تطوان

تقديم

يجدر بنا قبل الحديث عن مساهمة الرحلات الفرنسية إلى الدولة العثمانية خلال التاريخ الحديث، تقديم توطئة تاريخية للعلاقات الفرنسية العثمانية خلال التاريخ الحديث، أي منذ تأسيس تلك العلاقات في القرن السادس عشر من خلال معاهدة 1535 م، وحتى نهاية القرن الثامن عشر والحملة الفرنسية على مصر، وذلك بهدف تحديد الإطار التاريخي الذي تشكلت داخله الثقافة الاستشراقية الفرنسية والصورة التي أنتجتها الدولة العثمانية.

I–العلاقات الفرنسية العثمانية خلال التاريخ الحديث

1–العلاقات الفرنسية العثمانية خلال القرن السادس عشر([1])

تُرْجع المصادر التاريخية وعلى الخصوص الفرنسية([2]) بداية العلاقات الرسمية بين العثمانيين والفرنسيين إلى عهد بايزيد الثاني، فقد بعث خلال عام 1483 م برسالة إلى لويس الحادي عشر، بغرض الحصول على الموافقة بالتزام فرسان رودس بسجن الأمير جيم أوزيزيم – حسب المصادر الأوربية –([3])، غير أن هذه المهمة لم تتم بسبب وفاة لويس الحادي عشر، ورفض فرسان رودس الاستجابة للسلطان العثماني. وقد أعاد السلطان المحاولة خلال عام 1486 م، إذ اقترح على الملك شارل الثامن: تسليم الأمير جيم مقابل كل الذخائر الدينية وبقايا أجساد الفرنسيين التي تم العثور عليها في الإمبراطورية منذ محمد الفاتح، مقابل عدم قيام الفرنسيين بغزو القدس.

لقد كان مصير هذه السفارة مصير السفارة السابقة، وأتت سنة 1488 م ليبعث السلطان السفير أنطوان بنيشو (Antoine Benicho)، يحمل رسالة إلى الملك الفرنسي يطالبه فيها بالمصادقة على ما تحمله من اقتراحات([4]). وتتمة لذلك، وفي عام 1500 م بعث السلطان بايزيد الثاني برسالتين إلى الملك لويس الثاني عشر يطلب وساطة بين الباب العالي وجمهورية البندقية الإيطالية.

إلا أن العلاقات الفرنسية العثمانية شهدت منعطفاً جديداً تولي الملك فرانسوا الأول (François 1ère) الحكم في فرنسا، إذ يعتبرها المؤرخون الإرهاصات الأولى "للعلا قات المنظمة"، والمبنية على معاهدة كانت الأولى من نوعها بين الدولة العثمانية بصفتها دولة مسلمة، وأوربا المسيحية. ففي ظل حكم هذا الملك، وتحديداً في أبريل ومايو من عام 1517 م، صادق السلطان العثماني سليم الأول على كل الامتيازات التي كانت فرنسا قد حصلت عليها من طرف السلطان المملوكي قانصو غوري سلطان مصر عام 1517 م([5]).

ومما ساعد في توطيد هذه العلاقات والحضور السياسي والعسكري العثماني في أوربا، تلك الهزيمة التي لحقت بفرنسا في معركة بافي (Pavie) في إيطاليا، حيث أسر الملك الفرنسي من طرف الإسبان. وبما أن فرنسا قد تعرضت لشبه حصار أوربي، فقد توجهت إلى الباب العالي تقترح عليه حلفاً ضد إسبانيا، على الرغم من أن هذه الخطوة الفرنسية كانت تعترضها الكثير من المخاوف والأخطار، ليس أقلها الخوف من فقدانها "الاعتبار الروحي" ولقب "حامي المسيحية" في حالة تحالفها مع المسلمين([6]).

وخلال عام 1525 م وصل سفير فرنسي إلى الباب العالي يحمل الرغبة الفرنسية في حلف سياسي وعسكري ضد إسبانيا([7]). والواقع أن هذه الخطوة الفرنسية قد لقيت ترحيباً عثمانياً فقد بدا الباب العالي كالحامي الفعلي لفرنسا([8]).

لقد تمت ترجمة هذا التحالف على أرض الواقع من خلال التدخل العثماني لإطلاق سراح الملك فرانسوا الأول، وعبر عمل عسكري ضد هنغاريا، التي خضعت للباب العالي بعد معركة Mohacz، التي جعلت العثمانيين على مسافة قريبة من ڤيينا عاصمة النمسا، مما خلق حسب المؤرخ Charrière «وضعية سياسية تحولت إلى أساس للعلاقات الفرنسية العثمانية، ومحور تحركها الخارجي خلال المراحل المستقبلية بين الدولتين»([9]). وبالإضافة إلى النتائج السياسية والعسكرية لهذا

التحالف، فإن النتائج التجارية والدينية التي حققتها فرنسا كانت ذات أهمية خاصة كتلك التي حصلت عليها من الباب العالي في 20 شتنبر 1528 م، نذكر منها الحماية العثمانية للقناصل والتجار الفرنسيين الموجودين بأراضيها([10]). وعلى الرغم من هذه المراحل المهمة التي قطعتها العلاقات الفرنسية العثمانية خلال القرن السادس عشر، فإن الحدث الأهم خلال تلك الفترة هو معاهدة 1535 م، التي دعمت التواجد الفرنسي بالشرق العثماني، من خلال الامتيازات التي منحها العثمانيون لفرنسا. وقد تم التوقيع على هذه المعاهدة عام 1533 م، متضمنة اثنى عشر بنداً «شكلت أساس الحماية الاقتصادية والسياسية والدينية لفرنسا داخل الباب العالي»([11]). من أهم هذه البنود:

- حرية الإبحار والاتجار لرعايا البلدين.
- الحرية الدينية للفرنسيين.
- إطلاق سراح الرهائن والأسرى بين الطرفين. بالإضافة إلى امتيازات قانونية وقضائية أخرى([12]).

2–العلاقات الفرنسية العثمانية خلال القرن السابع عشر

تتميز العلاقات الفرنسية العثمانية خلال القرن السابع عشر بوضعين مختلفين، أحدهما يغطي النصف الأول من القرن، والثاني يغطي النصف الثاني منه: فالأول هو امتداد لتوقيع معاهدة 1535 م، التي سبق الحديث عنها، إذ تحولت الامتيازات إلى تقليد سياسي جعل من القرن السابع عشر قرن الامتيازات الأوربية في الدولة العثمانية. وفي هذا السياق تندرج معاهدة 1604 م التي يعتبرها بعض المؤرخين الأكثر أهمية خلال القرن السابع عشر([13]). فهي تضمن بالإضافة إلى بنود أخرى منها: أن لجميع الأمم الأوربية التي ترغب في التجارة مع الباب العالي استعمال السفن والحماية الفرنسية، منع القراصنة من التعرض للسفن الفرنسية. لكن الأكثر أهمية في هذه البنود هو: حق فرنسا في حماية الأراضي المقدسة المسيحية وبالتالي على المسيحيين الشرقيين الاحتماء بالملك الفرنسي([14]). وهذا ما يفسر رغبة الملك الفرنسي خصوصاً هنري الرابع Henri IV في لعب دور حامي المسيحية والمدافع عن مصالحها أمام الباب العالي، أما المسألة

الاقتصادية في عهده فلم تحظ إلا بمكانة ثانوية في سياسته([15]).

أما الثاني فهو ذو طبيعة خاصة، بمعنى آخر: أزمة دبلوماسية بين الطرفين كانت لها نتائج خطيرة على مسار العلاقات الفرنسية العثمانية، بسبب المساعدة العسكرية التي قدمتها فرنسا للبندقية في حربها ضد الباب العالي بالتحالف مع النمسا، مما أدى إلى اعتقال السفير الفرنسي Vantely de Haye المتورط الرئيسي في هذه القضية، وقد كان لهذه الأزمة نتائج سلبية أثرت على التجارة والتجار الفرنسيين، بالإضافة إلى الحماية الخاصة للأماكن المقدسة المسيحية. بل غيرت الخريطة السياسية الأوربية في علاقاتها بالباب العالي([16]).

وعلى الرغم من التوقيع على معاهدة 1673 م بين فرنسا والباب العالي فإن العلاقات لم تعد إلى سابق عهدها([17]).

3–العلاقات الفرنسية العثمانية خلال القرن الثامن عشر

خلال هذا القرن تأثرت العلاقات الفرنسية العثمانية بما عرف "بالمسألة الشرقية" La question d'Orient التي وجهت مسار العلاقة طيلة القرن الثامن عشر وحتى حملة نابليون على مصر.

إن الحضور الفرنسي في الشرق العثماني خلال هذا القرن ناتج بالأساس عن السياسة التقليدية التي جمعت فرنسا والباب العالي منذ معاهدة 1535 م، فحتى منتصف القرن الثامن عشر كانت فرنسا سياسياً، تعتبر الحليف الأوربي الرئيسي للباب العالي، وتجارياً ظل الفرنسيون يحتلون المكانة الأولى في الشرق، مدعومين بهيئة دبلوماسية كبيرة مشكلة أساساً من السفراء والقناصل. أما دينياً، فقد ظلت الحماية الفرنسية للمسيحيين الشرقيين والأماكن المقدسة المسيحية ثابتة إن لم نقل تفوق ما كانت عليه في السابق([18]). أكثر من ذلك فإن الحضور الفرنسي بالشرق العثماني كان مدعوماً بالآلة العسكرية بغرض إبراز قوة فرنسا في مقابل ذلك فإن الدولة العثمانية خلال هذا القرن كانت قد فقدت الكثير من هيبتها السياسية والعسكرية، ذلك أن مشاكلها الخارجية كانت تميز وضعها العام بسبب صراعاتها وحروبها المتلاحقة مع دول الجوار خاصة روسيا، والنمسا، اللتين ألحقتا بها خسائر فادحة على مستوى الأراضي، وأثر ذلك على مكانتها وصورتها في عيون

الغربيين([19])، خاصة بعد حربها ضد التحالف الروسي النمساوي، والتي انتهت بالتوقيع على معاهدة بلغراد عام 1739 م، حيث لعبت فيها فرنسا دور الوسيط والضامن. وبذلك تكون فرنسا من خلال جهود سفيرها (De Vileneuve) قد استطاعت أن تمنح للعلاقات الفرنسية العثمانية دماً جديداً، خاصة بعد التوقيع على امتيازات عام 1740 م ثم عام 1763 م([20]).

خلال الجزء المتبقي من القرن الثامن عشر شهدت العلاقات بين الطرفين منعطفاً جديداً قاد إلى القطيعة شبه النهائية، فأمام التقدم الهائل الذي حققته روسيا في مواجهتها للباب العال تراجعت الدبلوماسية الفرنسية بالشرق، خصوصاً بعد التقارب الذي تم بين فرنسا وروسيا والنمسا أعداء العثمانيين، أكثر من ذلك شارك الجيش الفرنسي الجيش الروسي في معاركه ضد الباب العالي، مما أثار حفيظة العثمانيين الذين كانوا ينظرون إلى فرنسا كحليف قديم لهم. وبذلك انتهت مرحلة طويلة من العلاقات بين الطرفين لتبدأ مرحلة أخرى كانت أولى أحداثها: الغزو الفرنسي لمصر([21]).

إن السفارة الفرنسية بالشرق العثماني، فضلاً عن دورها الدبلوماسي، كانت بمثابة مركز للدراسات الأدبية والعلمية والأثرية حول الشرق، فممثل الملك كان سفيراً ولكنه كان أيضاً مدير بعثة علمية([22]).

II-الرحالة الفرنسيون داخل الدولة العثمانية

ليس هدفنا هنا تقديم قائمة عن سير الرحالة الفرنسيين الذين ارتحلوا إلى الدولة العثمانية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر بدوافع شتى، وإنما الهدف السعي إلى بناء تصور مركز وعميق عن هؤلاء الرحالة من خلال معطيات سيرهم الذاتية، التي تحدد انتماءاتهم الثقافية والاجتماعية التي وجهت نظرتهم إلى العثمانيين أو المسلمين بصفة عامة، بمعنى آخر: الصورة التي أنتجها هؤلاء الرحالة عنهم. إن الرحالة الفرنسيين الذين زاروا الدولة العثمانية أو أقاموا بها خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر كانوا بالتأكيد يحملون معهم أفكارهم، وأحكامهم، وثقافتهم، وقراءاتهم السابقة التي كانت تشكل عناصر أساسية في توجيه طريقة نظرهم، وإدراكهم، وتقييمهم للأشياء. وبناء على ذلك فإن تقديم المجتمع الإسلامي العثماني من قبل هؤلاء الرحالة، لن يكون

بطبيعة الحال تقديماً موضوعياً، وإن كنا نقدر أن ثمة "موضوعية" نسبية متضمنة في رحلاتهم. إن ما هو مؤكد أن المجتمع الإسلامي سوف يتعرض بدون شك للتحريف والتشويه من قبل الرحالة وثقافته، أو بمعنى آخر الموروث الثقافي والانتماء الاجتماعي([23]).

إن دراسة التمثلات الجماعية لا يمكن أن تتم بدون الأخذ بعين الاعتبار في الوقت نفسه مضمون الصورة التي قام بإنتاجها، فهذان العنصران ضروريان لفهم الانتقال من الواقع الموضوعي إلى المتخيل. وعلى هذا الأساس فإن العنصر الإنساني، أي شخصية الرحالة، تكوينه، مهنته، ديانته، وسنه عند الرحلة، كلها عناصر ذات أهمية بالغة، لكونها تؤثر بشكل عميق في النظرة والحكم على الأشياء، وبشكل خاص طريقة إدراك الواقع([24]).

من الواضح حسب دراسة السير الذاتية التي قمنا بها من أجل التعرف على العناصر المميزة لكل رحالة على حدة، أن الرحالة الفرنسي هو نتاج عوامل اجتماعية متعددة توجه فكره، وأحكامه، وبمعنى آخر بناء الصورة للواقع أو الآخر. إن هذا تفاعل ونتاج ثقافة تراكمت في ذهنه طيلة مراحل حياته، حتى أن الرحلة أو الرحلات ومضامينها تمثل ترجمة صادقة لها. إن الدين من حيث هو عنصر أساسي في تحديد طريقة التفكير، وأساس نظام المعلومات في ظل قرون مطبوعة بالصراعات الدينية (القرنان السادس عشر والسابع عشر)، يبرز عند الرحالة الفرنسيين الذين زاروا الدولة العثمانية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، عاملاً مهماً، فكلهم مسيحيون كاثوليك، وهذا يفسر العلاقة المتميزة التي كانت تربط بين فرنسا والباب العالي: فسياسة الامتيازات العثمانية كانت قد منحت لفرنسا حماية الأماكن المقدسة المسيحية، والمسيحيين الكاثوليك في الشرق، هذا الامتياز كان يسمح للرحالة الفرنسيين بالانتقال بكل سهولة إلى الدولة العثمانية. وكمثال على ذلك رحلة السفير "دي هاي دو كورنومان" (Des Hayes de Cournemin) 1621 م التي كان هدفها تعيين قنصل بالقدس، فحماية الكاثوليك لم تكن فقط مهمة ملكية وإنما كانت فرنسا تريدها أن تكون مهمة كل الكاثوليك سواء في فرنسا أو بالشرق العثماني([25]).

إن الانشغالات الدينية القوية خلال هذه الفترة من التاريخ الحديث، كانت تبرز عند الرحالة الفرنسيين بشكل جد متميز، ويمثل هذه الحالة الرحالة "جان كوبان" (Jean Coppin)، الذي قام خلال عام 1638 م، برحلة إلى الباب العالي بهدف الحج إلى الأماكن المقدسة المسيحية. وفي عام 1640 م تم تعيينه قنصلاً بمدينة دمياط في مصر، وعند عودته إلى فرنسا نشر رحلته التي

تضمنت "مشروع حرب مقدسة" (Projet de guerre sainte) ضد العثمانيين([26]). ليس هناك شك في كون التكوين الديني لهذا الرحالة كان وراء رحلته، وطريقة مشاهدته، وأسلوب تقديمه للأشياء المشاهدة في الواقع الشرقي العثماني. وفي هذا السياق قدم مشروع حرب صليبية إلى الملك الفرنسي، ثم بعد ذلك إلى البابا بروما الذي تبنى هذا المشروع، وكتب إلى جميع أمراء أوربا المسيحيين يدعوهم إلى الوحدة والتحالف ضد العدو المشترك، أي الأتراك العثمانيين([27]).

إنه إذا كانت المصالح الدينية قد تم تجاوزها في أوربا باعتماد الفكر العلمي، فإن دور الفكر الديني ظل قوياً ومؤثراً في معرفة العالم الشرقي بحيث يعتمد في تحليله وفي الصورة التي تقدم عنه([28]). إن هذا الحضور الديني يبرز عند جميع الرحالة الفرنسيين للقرنين السابع عشر والثامن عشر، ولكن بشكل خاص عند الرحالة الذين يعملون في سلك رجال الدين، دوبدان (Doubdan) والأدب دودرو (Père de dreux)([29])... إلخ.

إن الرحالة الفرنسيين خلال الفترة الحديثة من التاريخ قد خضعوا لتكوين إنساني – نسبة للمدرسة الإنسانية – التي كانت تتميز بنظام تفكيرها، وفلسفتها. وهذا يعني أن ذلك قد أثر كثيراً، إن لم نقل أنتج طريقة النظر والصورة التي سجلوها عن العثمانيين. وبما أن التكوين يؤدي غالباً إلى المهنة، فإن الرحالة الفرنسيين للقرن السابع عشر والثامن عشر قد مارسوا مهناً تتطابق إلى حد بعيد مع التكوين الذي خضعوا له: فنجد في الدرجة الأولى مجموعة الدبلوماسيين، ثم التجار، ثم رجال الدين، ثم المغامرين. فالمجموعة الأولى تشكل الأغلبية، وهذا يتجلى من خلال النشاط الدبلوماسي بين الباب العالي وفرنسا، ومن جهة ثانية الحضور الفرنسي بالشرق العثماني. وقد ساهم هؤلاء الرحالة الدبلوماسيون كثيراً في التعريف بالعالم العثماني في الغرب الأوربي، هذا الدور الذي كان يتقاطع في نفس الوقت بدور الإنسانيين منذ القرن السادس عشر، ثم فيما بعد بالتفكير العلمي خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر([30]).

أما فيما يتعلق بفئة التجار ورجال الدين فإن عددهم كان أقل بكثير من فئة الدبلوماسيين، فخلال هذه المرحلة قل عدد التجار الذين دونوا رحلاتهم إلى الشرق، وهذا يفسر بازدهار التجارة الفرنسية بهذه المنطقة من العالم منذ التوقيع على امتيازات 1535 م بين فرنسا والباب العالي. كما أن التجارة مع الشرق بالنسبة للتجار الفرنسيين كانت عملية نشطة، ولم يكونوا يرون داعياً لتدوين رحلاتهم. ذلك أن الشرق بالنسبة للتجار هو قيمة مادية قبل كل شيء([31]).

وإذا كان عدد الرحالة من رجال الدين قد قل خلال القرن السادس عشر، فإنه سوف يتكاثر نسبياً خاصة خلال القرن السابع عشر، وذلك من جهة بفضل الامتياز الذي حصلت عليه فرنسا، والمتمثل في حماية الأماكن المقدسة المسيحية والمسيحيين الشرقيين، ومن جهة أخرى، بفضل الدور الذي قامت به البعثات الدينية. وعلى الرغم من هذا الحضور، فإن رجال الدين لا يشكلون مصدراً مهماً لمعرفة الشرق العثماني، لأن الانشغالات الدينية المرتبطة بالحج، ووضعية الأماكن المقدسة كانت تمنعهم أو لنقل تحد من الاهتمام بالواقع اليومي العثماني([32]).

أما فيما يخص فئة الرحالة المغامرين، فإن رحلاتهم إلى الباب العالي مرتبطة من جهة التكوين الخاص من طرف أقربائهم في التجارة على وجه الخصوص، ومن جهة أخرى الرغبة في المغامرة. مثال ذلك: الرحالة جان باتيست تافرنيان (Jean Baptiste Tavernien) الذي حصل على التكوين في التجارة قرب والده الذي كان يتاجر في الخرائط الجغرافية. ارتحل إلى الشرق بدافع المغامرة والاتجار في الأحجار الكريمة. الشيء نفسه ينطبق أيضاً على الرحالة جان تيفينو (Jean Thévenot) الذي خضع لتكوين استشراقي من قبل عمه، وارتحل هو أيضاً إلى الشرق بهدف مشاهدة عجائب الشرق والمغامرة([33]).

إن الرحالة الفرنسيين خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر يشكلون تحديداً أربع مجموعات كبرى:

- الدبلوماسيون ورجال العلم.
- المغامرون.
- رجال الدين أو الحجاج.
- التجار([34]).

لكن يبقى السؤال الأكثر أهمية إلى حد الآن هو: ما العلاقة الموضوعية التي تجمع بين أهداف الرحلات وطريقة مشاهدة الأشياء عند هؤلاء الرحالة؟

بداية تشير إلى أن ظروف المشاهدة عند الرحالة هي مرتبطة من جهة بالقيمة التي يمنحها للبلد أو البلدان المزارة، ومن جهة أخرى بأهداف الرحلة. في هذا السياق وحسب التمييز الذي أجريناه بين رحالة القرن السابع عشر والثامن عشر: دبلوماسيون، مغامرون، رجال الدين، تجار، فإن أفكار الرحالة تختلف بدون شك من فئة إلى أخرى. وفي هذا الخضم فإن نظرة الدبلوماسيين تتحرك في حدود الاعتبارات السياسية والعقلانية. مثال ذلك: الرحالة دي هاي كورنومان (Des Hayes de Cournemin)، وتورنوفور (Tournefort)، وسفري دو بريف (Saveory de Brèves). أما نظرة المغامرين فهي مؤطرة بالفضول والبطولة، وفي بعض الأحيان المبالغة والغرابة. مثال ذلك الرحالة بول لوكا (Paul Lucas)، وجان تيفينو. أما فيما يتعلق بالحجاج أو رجال الدين فإن نظرتهم مغلقة بالإيمان والتصوف. وكمثال على ذلك الرحالة دوبدان (Doubdan)، وكوبان (Coppin). وبخلاف كل هذه الفئات فإن نظرة التجار هي مؤطرة بالقيمة المادية للأشياء المشاهدة. مثال ذلك الرحالة تافيرنييه (J.B. Tavernier).

وعلى الرغم من تباين هذه الفئات من الرحالة، وتباين طريقة نظرتهم للأشياء، فقد ساهموا وبدرجات متفاوتة في معرفة العالم العثماني التركي.

يلاحظ أنه خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر تزايد دور الدبلوماسيين من أجل معرفة جيدة عن العثمانيين، لكون الفترة تتميز بتطور السفارات الدائمة في الشرق، وسيطرة الإنسانيين في مجال المعرفة والفكر منذ القرن السادس عشر، بالإضافة إلى انتشار الفكر العلمي خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر.

ولا ننسى في هذا السياق أن الرحالة السفراء كانوا كلهم ينحدرون من أوساط علمية، فقد كانوا يهتمون سواءً بالوضعية الداخلية للدولة العثمانية، بحيث كانوا يبعثون تقارير عنها إلى ملوكهم، أو بالغنى الثقافي للباب العالي. وفي هذا الإطار نذكر على سبيل المثال الرحالة السفير دي هاي دو كورنومان الذي كان إنسانياً، بعثه الملك الفرنسي في سفارة إلى الباب العالي بهدف تعيين قنصل بالقدس([35]). وأثناء تواجدهم بالشرق العثماني لم يكتف هؤلاء الرحالة الدبلوماسيون بجمع التحف والمخطوطات، بل اهتموا بشكل خاص بوضعية الباب العالي، سواءً منها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية والدينية. وهذا ما قام به الرحالة دي هاي دو كورنومان، الذي تعتبر رحلته مصدراً مهماً لمعرفة الدولة العثمانية خلال القرن السابع عشر. والحكم نفسه ينطبق

أيضاً على السفير تورنفوا (Tournefoit)، الذي بعث في مهمة علمية إلى الشرق عام 1700 م، دوَّن بعدها رحلة ذات قيمة خاصة في معرفة الشرق العثماني. والشيء نفسه ينطبق أيضاً على الرحالة البارون دو طوط (Le baron de Tott) الذي لم يزر فقط الباب العالي، وإنما ساهم في الأحداث التي عرفتها الدولة العثمانية خلال القرن الثامن عشر، خاصة أثناء حربها ضد روسيا، دوَّن بعدها رحلته التي هي بمثابة وثيقة تاريخية حول الأوضاع السياسية للعثمانيين([36]).

إن الدراسة المقارنة للشعوب تتيح بدون شك للفكر المتنور التفكير في الأنا من خلال الآخر أي المجتمع. فالغرابة أو الغرائبية (éxotisme) شكلت بالنسبة لرحالة القرنين السابع عشر والثامن عشر طريقة لانتقاد المجتمع الفرنسي من خلال عرض المجتمع التركي العثماني. فكتب الرحلات خلال هذه الفترة لم تشكل فقط دعامة للأفكار الفلسفية الجديدة، وإنما قدمت مساهمة كبيرة لبعض رجال الدولة لتبرير إرادتهم في إصلاح مؤسسات الدولة الملكية([37]).

وعلى هذا الأساس، وخلال هذه الرحلة فإن كتب الرحلات الفرنسية، كانت تقدم ليس فقط قيمة كبرى للشرق العثماني، الذي كان يبدو بالنسبة للقرنين السابع عشر والثامن عشر بعيداً وغامضاً، وإنما كانت تدفعهم أيضاً إلى الارتحال إلى الشرق لمشاهدة العجائب التي طالما قرؤوا عنها في كتب الرحلات. ومن بين الذين تنطبق عليهم هذه الوضعية الرحالة المغامر جان تيفينو، الذي يصرح في مقدمة رحلته بأن هدفه من الرحلة جاء تحقيقاً للرحلات التي كان يحلم بتحقيقها، أو سمع عنها كثيراً([38]). والشيء نفسه يمكن أن يقال عن الرحالة ڤولني (Volny)، الذي غادر فرنسا عام 1783 م باتجاه الشرق، بهدف الحصول على معرفة معمقة عن هذه البلاد التي تشكل الثقافة الاستشراقية عنها ضرورة لمثقفي القرن الثامن عشر([39]). بالإضافة إلى هؤلاء نجد رحالة مغامرين آخرين سواء من القرن السابع عشر أو الثامن عشر: هنري دوبوفو، ودو لابولاي لوغو، وبول لوكا... إلخ. كل هؤلاء الرحالة يشكلون فئة يصعب تفسير دوافع رحلتهم إلى الشرق (عدا عنصر المغامرة)، فقط لكون رحلتهم مرتبطة بعوامل شخصية أكثر منها ثقافية.

أما بخصوص الرحالة الحجاج أو رجال الدين، فإذا كان عددهم قليلاً خلال القرن السادس عشر لعوامل مرتبطة بالحركة الثقافية والدينية لهذا القرن، ووضعية العلاقات الفرنسية العثمانية خلال تلك المرحلة، فإنه خلال القرن السابع عشر حسب يوركا نيكولاس (Iorga Nicolas) سوف يعرف هذا النوع من الرحلة تطوراً نسبياً باتجاه الشرق العثماني([40]).

وهذا يفسر من جهة بالامتياز الذي حصلت عليه فرنسا من الباب العالي لحماية الأماكن المقدسة المسيحية والمسيحيين الشرقيين، ومن جهة ثانية بالدور الذي قامت به البعثات المسيحية. لكن على الرغم من الحضور المتجدد للرحالة الحجاج في القرن السابع عشر، فإنهم لا يشكلون مصدراً رئيسياً لمعرفة الشرق الإسلامي، فالشرق بالنسبة لهؤلاء روحي قبل كل شيء.

أما بخصوص الرحالة التجار، فإن عددهم قبل القرن السابع عشر كان كبيراً، غير أن هذا العدد سوف يقل كثيراً خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، فطيلة تلك الفترة لم نعثر إلا على رحلة واحدة ذات أهداف تجارية، ويتعلق الأمر بالرحالة تاڤرنيي (Tavernier) الذي قام بست رحلات إلى الشرق ما بين 1636-1661 م.

إن هذا الغياب يمكن تفسيره بازدهار التجارة الفرنسية مع الشرق العثماني، فمنذ التوقيع على معاهدة 1535 م، والتي منحت لفرنسا امتيازاً تجارياً، فإن التجار الفرنسيين كانوا مدعومين من طرف السفراء أو القناصل، الشيء الذي أدى إلى ازدهار تجاري فرنسي بالشرق. غير أن التجار لم يتركوا معلومات كثيرة حول الشرق، فالشرق كما سبقت الإشارة إلى ذلك بالنسبة للتجار، له قيمة مادية وليس معرفية، وعلى هذا الأساس فإن مساهمة الرحالة التجار في التعريف بالشرق تبقى ضعيفة، ولا يمكن اعتماد رحلاتهم كمصدر أساسي لمعرفة الشرق.

في الخلاصة إذن، يبقى الرحالة السفراء الأكثر إسهاماً في التعريف بالشرق العثماني خلال الفترة الحديثة سواء كان ذلك بمبادرتهم الخاصة، أو بتشجيع من الملوك الفرنسيين والمسؤولين السياسيين للدولة.

III-العثمانيون من خلال كتب الرحلات الفرنسية

شكلت كتب الرحلات خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر وسيلة عملية لإعلام وتشكيل الرأي العام حول الجديد الثقافي والعلمي للمرحلة. أما بخصوص العثمانيين، فإن الرأي العام الفرنسي حولهم إلى إشكالية حقيقية تتغذى بشكل أساسي من إسهامات مختلف فئات الرحالة إلى الشرق.

كيف قدم إذن الرحالة الفرنسيون العثمانيين إلى الرأي الفرنسي؟ وما الصورة التي أعطيت للتركي خلال تلك الفترة؟

نذكر في البداية أن الرحلات الفرنسية إلى الشرق العثماني خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، قد أولت اهتماماً خاصاً بالمجتمع العثماني المسلم، وذلك من خلال التطرق إلى أربعة مواضيع رئيسية: الشعب، مظاهر الحضارة، الإسلام التركي، مؤسسة الحكم.

إنها المواضيع التي كانت تشغل الرأي العام الفرنسي، ويبدو ذلك واضحاً من خلال التعابير التي كان يستعملها الفرنسيون (il est comme un turc) "إنه شبيه بالتركي"، (fort comme un turc)، "قوي مثل تركي"، (une tête turc)، "رأس تركي"... إلخ، ولذلك فقد حرص الرحالة الفرنسيون على تسجيل كل ملاحظاتهم عن الأتراك لتقديمها إلى الرأي العام الذي يتداولها بشكل يومي.

في تعريف الأتراك وأصلهم

عدد قليل من الرحالة الفرنسيين الذين تركوا لنا معلومات حول هذا الموضوع، فالأمر لا يتعلق بتعريف جغرافي للدولة العثمانية، وإنما بتعريف تاريخي وأنثروبولوجي. في رحلته إلى الشرق العثماني يقدم الرحالة فرمانيل (Fermanel) مساهمة في التعريف بتاريخ الأتراك: «فالأتراك عند بدايتهم لم يكونوا سوى جماعة من الرحل المتشردين الذين نزحوا من بلاد التتار بآسيا الوسطى...». أما فيما يتعلق بالتسمية، أي العثمانيون، فهي ترجع إلى المحارب عثمان ابن أرطغول الذي أعطى بعد استقراره بمدينة بورصة الانطلاقة لتأسيس الدولة العثمانية([41]).

لا يضيف هذا الرحالة أو غيره معلومات أخرى عن تاريخ الأتراك وأصلهم، إذ ينتقل مباشرة بعد ذلك إلى الحديث عن الدولة العثمانية في وضعها الجيوسياسي، والذي يعكس كبرها وحجمها الاستراتيجي: «منذ عثمان إلى اليوم تعاقب على هذه الدولة اثنان وعشرون خليفة من أب لابن أو من أخ لأخ... هؤلاء السلاطين وسعوا كثيراً من حدود دولتهم، الشيء الذي جعلهم يملكون اليوم أجمل جزء من أوربا وآسيا وإفريقيا. لقد ربحوا بلداناً كثيرة في ظرف أربعمائة سنة، في حين امتلكها الرومان قديماً في ظرف ثمانمائة سنة...» ([42]).

لكن هذه الدولة كما يقدمها رحالة آخر: دي هاي دو كورنومان، تعاني من نقص كبير في الساكنة: «كثير من الناس تتعجب وبدون سبب من كون هذه الدولة فارغة من الساكنة، على الرغم من أن التركي بإمكانه أن يتزوج أكثر من امرأة واحدة، الشيء الذي يمكنه من إنجاب عدد كبير من الأطفال، مما نتج عنه زيادة عدد المسلمين على عدد النصارى...» ([43]). ويفسر هذا الرحالة ظاهرة التعدد بكون الحرب تقضي على عدد كبير من رجالهم، كما أن الطاعون يحصد الكثير من أرواحهم([44]).

وعلى الرغم من أن العنصر التركي الأكثر تحكماً في أمور الحكم والسياسة، فإن شعوباً أخرى غير تركية تتقاسم هذه الدولة مع الأتراك «يسكنها ثلاثة أجناس من مختلف الديانات، لكنهم غير راضين بالحكم التركي.. سوريا، فلسطين، والجزيرة العربية. أما في الجانب الإفريقي فيسكنها العرب والبربر حيث يقطن العرب الأرياف تحت الخيام، أما البربر فيقطنون المدن والقرى...»([45]).

إن الرحالة الفرنسيين للقرنين السابع عشر والثامن عشر لا يضيفون شيئاً حول أصول الأتراك، لماذا؟

نعتقد أن هناك تفسيرين لهذه المسألة: الأول أن هذا الموضوع سبق التطرق إليه من رحالة القرن السادس عشر([46]). الذين قدموا لأول مرة التاريخ التركي للرأي العام الفرنسي، الثاني أن رحالة القرن السابع عشر والثامن عشر كانوا أكثر اهتماماً بالواقع العثماني من الماضي. بالإضافة إلى ذلك فإنه خلال القرن السابع عشر شهدت الكتب المتعلقة بالتاريخ التركي نتاجاً غزيراً، لذلك لم يكن الرحالة يولون هذا العنصر أهمية كبرى تجنباً للتكرار.

في وصف الأتراك

فيما يتعلق بالمظهر الخارجي للأتراك لا يقدم لنا الرحالة الفرنسيون إلا وصفاً للرجال، فجان تيفينو، هو الوحيد بين جميع الرحالة الذي تحدث في رحلته عن المظهر الخارجي للأتراك، هو في هذا الصدد لا يقدم الصورة التي صاغها رحالة هذه الفترة عن الأتراك، وإنما الصورة التي كانت لدى الرأي العام الفرنسي، يقول تيفينو: «إن الأتراك يملكون قامة جميلة، وبما أن أجسامهم جد

متوازنة، فإنهم لا يعانون من عيوب خلقية كالتي نجدها عادة في دول أوربا، مثل الحدب، والعرج، لذا يقال عنهم "قوي مثل تركي" لأنهم في غالبيتهم أقوياء وأشداء»([47]).

إن الصورة الجماعية التي يقدمها هذا الرحالة تعكس جانباً إيجابياً أكثر أهمية من الجانب السلبي الذي يطلق عامة على الأتراك.

أما فيما يتعلق بالجانب المعنوي، فبخلاف ما كان يشاع عن الأتراك منذ القرن السادس عشر: بأنهم غلاظ الطبع وبدون رحمة، نجد الرحالة الفرنسيين للقرنين السابع عشر والثامن عشر يغيرون جذرياً هذه الصورة الموروثة عن فترة الحروب الصليبية. فتيفينو الذي أولى هذا الموضوع أهمية خاصة من بين جميع الرحالة يقول: «يعتقد الكثير في البلاد المسيحية بأن الأتراك "شياطين كبار"، و"برابرة"، و"أناس بدون إيمان"، لكن الذين عرفوهم وتحدثوا إليهم يقولون بأنهم أناس طيبون، يتبعون حرفياً مقولة (علينا أن نحب لغيرنا ما نحب لأنفسنا»([48]).

لا يكتفي هذا الرحالة بإيراد هذه المعطيات عن روح ومعنويات الأتراك، بل يضيف خصوصيات معنوية بالغة الأهمية: «إنهم (الأتراك) لا يؤمنون بجواز الكذب أو الغش سواء مع مسيحي أو تركي.. لا يتخاصمون، ولا يحملون السيوف داخل المدينة، حتى بالنسبة للجنود باستثناء الخنجر فقط. إنهم قليلو الخصومات، والمبارزات لا نجدها عندهم، وهذا راجع بالأساس إلى الإسلام الذي حرم على أتباعه الخمر، والميسر، لذا فالأتراك لا يشربون الخمر، والذين يشربونه لا يحترمون ويمكن أن نقول بأنهم يأكلون من أجل العيش، ولا يعيشون من أجل الأكل...»([49]). هذه الصورة التي يقدمها جان تيفينو عن الجانب المعنوي للأتراك يؤكدها أيضاً الرحالة الأب روبير دودرو (P. Robert de Dreux) الذي يضيف إليها أربعة مظاهر معنوية أخرى. يقول هذا الرحالة: «لقد لاحظت فيما هو مشترك عند الأتراك: كثرة الصدق، كثرة التواضع، اعتدال في المأكل والمشرب، وحب كبير لدينهم...»([50]).

نجد هذه الصورة أيضاً عند رحالة آخر من الفترة نفسها حيث يؤكد أن الأتراك: «طيبون... كثيرو الجدية والتواضع... كما أن البساطة والبراءة كثيرة الانتشار بينهم مع صدق لا مثيل له»([51]).

في الخلاصة نجد أن الأتراك حسب تقديم الرحالة، شعب يتميز بجسد متميز: قوي،

وصلب، وبمعنويات كبيرة وحية. إن الملاحظ في هذه المعطيات أنها لا تتطابق مع الصورة الأسطورية للقرون السابقة.

الرجل التركي والمرأة التركية

يتميز الرجل التركي أو المرأة التركية كما يقدمهما الرحالة الفرنسيون بلباس كثير التماثل، مظهره جميل، ممتع أثناء المشاهدة، ونظيف، يعكس ثقافة وفناً شرقيين: «إن لباسهم مفيد للظهور بقامة جميلة، وتغطي العيوب...»([52]). بالنسبة للرجال فإن الرحالة تيفينو يكاد يكون الوحيد في تقديم معطيات حول هذا الموضوع فالأتراك يلبسون «قمصاناً، ويلبسون فوقها سترة من القماش من الأطلس (Sain) أو من أثواب أخرى راقية... فوق هذه السترة يضعون حزاماً يمكن أن يستخدم عمامة، أو حزاماً من الجلد مزيناً بأقراص قد تكون من الذهب أو الفضة»([53]).

يضيف هذا الرحالة الدقيق الملاحظة أن الأتراك يحملون دائماً في أحزمتهم خنجرين قد يكون مقبضها مرصعاً بالذهب أو الفضة أو من الأحجار الكريمة... كما يحملون منديلين كل واحد في جانب تستعمل لأغراض كثيرة... يضع الأتراك فوق السترة أيضاً ما يشبه المعطف لكن ليس بشكل دائم([54]).

فيما يخص الأقدام يلبس الأتراك أحذية من لون واحد، أما كعبها فهو متساو مع مقدمة الحذاء الذي يحمل اسم: البابوش.

لكن العنصر الأكثر تميزاً في لباس الأتراك هو العمامة، التي حسب الرحالة تيفينو، تعتبر عنصر تميز من حيث الانتماء الاجتماعي بين الأتراك: «يحمل الأتراك فوق رؤوسهم قبعة... يضعون حولها عمامة زرقاء أو حمراء... هذه العمامة هي خمار من القماش أو من الحرير... يضعونها على الرأس بشكل دائري، وبأشكال متعددة بحيث تعرف قيمة التركي الاجتماعية من خلال شكل وطريقة وضع العمامة...»([55]). في نفس السياق يؤكد نفس الرحالة بأن اللون الأخضر للعمامة عند الأتراك خاص بالأشراف الذين ينتمون لآل البيت، ولا يمكن لأحد من العامة أن يضع عمامة بهذا اللون.

عند نهاية ملاحظاته يضيف الرحالة بأن الأتراك يحلقون رؤوسهم... ويتركون لحاهم وشواربهم باستثناء الذين يعملون داخل القصر.

إن اللحية عند الأتراك – حسب هذا الرحالة –، معيار للاحترام، لذلك لا يحلقها السلطان، كما أنهم يقبلون لحى بعضهم البعض([56]).

من خلال هذه المعلومات التي يقدمها الرحالة تيفينو عن لباس الأتراك، فإنه يعكس طريقة لباس مختلفة تماماً عن لباس الفرنسيين، متناسق في مظهره، وممتع أثناء المشاهدة.

فيما يخص النساء التركيات، فتجدر الملاحظة إلى كون الرحالة الفرنسيين وغيرهم من الأوربيين قد تعاملوا مع هذا الموضوع بحساسية كبيرة، وهذا يفسر الكثير من المبالغات والخرافات التي وقع فيها الكثيرون منهم، وهذا نجده في الكثير من أحاديثهم عن المرأة التركية: «هناك الكثير من الصعوبة والخطر لرؤيتهن... ولا يراهن إلا اللواتي يلتقين بهن في الحمام ولا يشاهدن خارج البيوت... فإنهم لا يذهبن إلى الحمام إلا مرة واحدة على الأقل لأن أزواجهن يمنعونهن من ذلك بسبب تعاليم الدين»([57]).

إن النساء (التركيات) يبقين في البيوت «وتحترم البيوت التي بها النساء حتى أن العدالة لا تدخل بيت رجل مطالب لديها...»([58]).

يسمي الأتراك نساءهن الحرمة (من الحريم) الذي يعني المقدس، وهو ما لا يجوز المساس به. وما دام الدخول إلى البيوت أمراً صعباً على أهل البلد، فإنه ممنوع كلياً على الأجانب خاصة من الإفرنج([59]).

وعلى الرغم من ذلك فقد ترك هؤلاء الرحالة معلومات مهمة للرأي العام الفرنسي حول المظهر الخارجي وخصائصه، والجمال التركي وطريقة اللباس.

جان تيفينو عند وضعه لصورة المرأة التركية تحدث عن بعض مميزاتها: «في تركيا النساء جميلات، صورتهن حسنة وبدون عيوب، شديدات البياض لعدم خروجهن من البيوت، ويضفي الحجاب الذي يلبسنه عند الخروج بعض الزينة، ويكحلن عيونهن... ويضعن على الأظافر الحنة. إنهن نظيفات»([60]).

كما يلبسن المعاطف التي يحزمنها بأحزمة مرصعة بأشكال ذهبية أو في بعض الحالات بأحجار كريمة... أما عند خروجهن من البيت فيضعن خماراً وسترة ذات كمين طويلين لا تسمح بظهور شيء إلا الأصابع. أما أحذيتهن فهي مثل أحذية الرجال([61]).

لقد لاحظ هذا الرحالة أن النساء التركيات لهن شعر طويل إلى الخصر، لكنهن أيضاً يضعن غطاء على الرأس مثل طربوش من أثواب حمراء... أما عند مغادرتهن البيت فإنهن يضعن خماراً على الرأس والوجه لا يسمح بظهور إلا العينين([62]).

على الرغم من كون النساء التركيات والمرأة المسلمة بصفة عامة لها صفة الاحترام، فإن الرحالة اهتموا بحياتهن الخاصة والغامضة في تصورهم، غير أن المعلومات المقدمة من طرف هؤلاء تفتقد إلى الموضوعية، لأنهم لم يكونوا على علاقة مباشرة بالنساء، لأن البيوت كانت ممنوعة كلياً من الأجانب. وهذا ما أكده بعض الرحالة عند قولهم: «نعرف الشيء القليل حول عادات النساء »([63]). غير أن الرحالة بخصوص هذا الموضوع يميزون بين نوعين من النساء في تركيا: نساء القصر أو السرايا (Sérail)، ونساء العامة، لكون النموذجين يمثلان طريقتين مختلفتين في الحياة.

نساء السرايا

الجدير بالملاحظة في هذا الصدد أن المعلومات المقدمة من الرحالة الفرنسيين مأخوذة عن بعض النساء اللواتي سبق لهن دخول السرايا، ولذلك فإن بعض الرحالة يشككون في مصداقية هذه المعلومات لكونها «ترتكز على الخيال... لذلك فهي بعيدة عن الحقيقة»([64]).

بالنسبة لجل الرحالة فإن نساء القصر الأكثر غموضاً في ملك السلطان. أما الجناح الذي يقمن فيه فإنه يحتل ثلث القصر بسبب العدد الكبير من النساء اللواتي يقمن فيه، والذي قد يصل في بعض الأحيان حسب الرحالة لرمنيل (Fermanel) إلى أربعمائة امرأة أو أكثر.

هاته النسوة حسب هذا الرحالة كلهن هدايا يقدمها الباشاوات إلى السلطان خاصة عند توليه الحكم([65]). وعلى الرغم من هذا العدد الكبير من النساء فإن السلطان لا يفضل منهن إلا القليلات، وبالتدقيق ثلاث بحيث يعشن في أجنحة خاصة يكون لهن الخدم أو الإماء اللواتي

يخدمنهن.

عندما تنجب إحدى نساء القصر ولداً من السلطان فإنها تتحول إلى أميرة أو بالتركية خادون([66]).

كثيرة هي المعلومات التي يقدمها الرحالة حول نساء القصر: فالرحالة تافيرنييه يسميهن "البئيسات" أما تورنفور فينعتهن "مخلوقات القصر"، أما فريير (Feriers) فيسميهن "ضحايا السلطان".

نساء العامة

لا تختلف وضعية النسوة كثيراً عن وضعية نساء القصر، فالصورة التي يعكسها الرحالة حولهن هي صورة نساء حبيسات البيوت، وقلما يخرجن منها، وحتى عند الخروج فهن محجبات. ويميز الرحالة داخل هذه الفئة من النساء بين نساء الأغنياء ونساء العامة، أما الفئة الأولى حسب آرڤيو (Arvieux) «فهن حبيسات البيوت، وليس لهن من تسلية غير الذهاب إلى الحمام والموسيقى والرقص لتسلية أزواجهن، واهتمامات أخرى مثل طرز المنادل، والفوط والقمصان... إلخ»([67]).

غير أن الذهاب إلى الحمام يشكل – حسب الرحالة – النشاط المفضل لديهن، لذلك أولاه الرحالة اهتماماً خاصاً في رحلاتهم، في مقابل ذلك لم يترك لنا هؤلاء أي معلومات عن باقي الأنشطة الأخرى.

لقد اعتبر الرحالة دولوار حمامات النساء بمثابة مكان للتجمع واللقاء بين النساء الشرقيات: «كل النساء يذهبن (إلى الحمام) لأنه المكان الوحيد للتجمع ولقاء الصديقات...»([68]).

في ثقافة التغذية

يندرج هذا الموضوع عند الرحالة الفرنسيين للقرنين السابع عشر والثامن عشر، في إطار

عرضهم لبعض مظاهر الحضارة العثمانية التي تعكس درجة التطور، سواء في المجال التقني أو المجالين الاجتماعي والثقافي، التي استطاع المجتمع التركي تحقيقها عبر عاداته، وديانته وثقافته. ففي كتاباتهم حول الواقع العثماني أولى الرحالة الفرنسيون اهتماماً خاصاً لمظاهر الحضارة العثمانية كعادات الأكل، النظافة والعلاقات بين الأفراد... إلخ.

ففيما يتعلق بموضوع ثقافة التغذية اهتم الرحالة بالعناصر المكونة للتغذية والأكثر استهلاكاً من طرف الأتراك: مثل اللحوم بمختلف أنواعها، والحبوب، والخضر، والفواكه، والعسل، والجبن، الزبدة والزبيب([69]).

ويلاحظ الرحالة في هذا الموضوع أن الأرز يشكل المادة الأساسية في الأكل التركي حيث يطبخ بطريقة مختلفة: البيلو (Pilau)، ولابا (Lappa) وشوربة (Chorba) ([70]).

أما بخصوص المشروبات فإن الرحالة يقدمون معلومات حول أنواع مختلفة منها، ويشكل الماء العنصر الأساسي فيها، من هذه المشروبات يذكر الرحالة تافيرنييه: سوربي (Sorbet) الشبيه بالمشروبات الغازية، والبوظة (Boza) القريب من البيرا (Bière)([71]).

وعلى الرغم من وجود هذه المشروبات على اختلافها، فإن القهوة – كما لاحظ الرحالة ذلك – تبقى المشروب الأكثر تمييزاً للشرق. إن هؤلاء الرحالة لم يهتموا بالقهوة فقط، وإنما أيضاً بأدوارها الاجتماعية داخل المجتمع التركي، خاصة عند حديثهم عن المقاهي (Calavéhane) التي كانت وراء ظهور المقاهي الأدبية (Cafés littéraires) خلال القرن الثامن عشر، والمقاهي الحالية في العالم بأسره([72]). أليس هذا تأثيراً ثقافياً عميقاً ليس فقط للأتراك وإنما للشرق في الغرب؟

مما لا شك فيه أن القهوة أكثر من مشروب شرقي، فهي تعبير عن تقاليد وعادات اجتماعية تدعم العلاقات بين الأفراد، وتخلق جواً خاصاً في المقاهي.

في النظافة الجسدية

لقد تنبه الرحالة الفرنسيون إلى كون النظافة والماء عنصرين أساسيين في حياة المسلمين،

ويفسرون ذلك بكون الإسلام يؤدي دوراً كبيراً في التأكيد على النظافة. ولذلك فقد لاحظ الرحالة على أن الغسل يعتبر ضرورة دينية قبل كل شيء. ويشكل الحمام بأشكاله المختلفة مكان النظافة المفضل سواء بالنسبة للسلطان الذي يملك حماماً خاصاً به وبنسائه أو الأغنياء أو العامة. وقد اختبر بعض الرحالة من أمثال: دولوار، ولابولاي، وتيفينو، وتورنوفور، وبارون توت الحمام التركي وإيجابياته الصحية، وقدموا للرأي العام الفرنسي أوصافاً مدهشة حوله.

إن الحمامات الشرقية بالنسبة لهؤلاء فريدة حتى في طريقة بنائها، إذ تنضبط بشكل أساسي لتعاليم الإسلام، ولذلك اعتبر الرحالة هذه الظاهرة أكثر من معطى ثقافي بل فلسفة شرقية خالصة.

إن هذه الحمامات كما وصفها الرحالة، تتكون عادة من جناحين كبيرين، وتوجد بكل المدن الشرقية، غالية الثمن([73]). كما أنها مفتوحة في وجه الرجال والنساء، فالرجال يدخلونها صباحاً، والنساء بعد الزوال، وهي تشتل من الرابعة صباحاً حتى الثامنة مساء([74]).

وعلى هذا الأساس فقد خلص جميع الرحالة إلى استنتاج واحد وهو أن الشرقيين ومنهم الأتراك هواة الحمامات([75]).

في العلاقات بين الأفراد

إن المقصود بين الأفراد، تلك العلاقة التي تربط بين عناصر المجتمع، وقد أولاها اهتماماً خاصاً، واقتصروا فيها على علاقات الصداقة بين الرجال، علاقة الرجل بالنساء.

بالنسبة للنوع الأول يتحدث عنه الرحالة باعتباره مظهراً اجتماعياً من خلال الممارسة في الحياة التركية اليومية، ويركزون في ذلك على طريقة السلام والتحية، والزيارات وطريقة التحدث فيما بين الأتراك.

بالنسبة لطريقة التحية والسلام حسب الرحالة تيفينو، والتي يلاحظ بأنها تختلف تماماً عن طريقة الفرنسيين، فهي تقوم على وضع اليد على القلب أو البطن، والانحناء قليلاً، وقول "السلام عليكم"، ويرد الآخر بنفس الطريقة مع قول "وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته". وهذه التحية –

حسب الرحالة – بالغة الأهمية لأنها تحية الإسلام([76]).

أما باقي الأشكال الأخرى للتحية، فهي التقبيل مع الأخذ بطرف اللحية، وتكون خاصة بين الرجال الأكثر صداقة بين الأتراك([77]).

فيما يتعلق بالزيارات والحديث فإن الرحالة دولوار يلاحظ أن الأتراك لا يتحدثون أثناءها إلا في القضايا الجادة. كما أن للأتراك تقاليد خاصة عند الزيارة إذ يقدم له صاحب البيت العطر، ثم مشروباً، ثم في الأخير القهوة([78]). والضيف عند الأتراك سيد البيت([79]).

أما النوع الثاني من العلاقة بين الأفراد أي علاقة الرجل بالمرأة فإن الرحالة لا يتحدثون إلا عن العلاقة الشرعية بين الرجل والمرأة بمعنى الزواج...([80]). وهذا الزواج الذي يطلق عليه نكاحاً أيضاً يسجل أمام القاضي بحيث يضم قيمة المهر... ([81]).

الموضوع الآخر الذي أثار انتباه الرحالة بحيث يشكل بالنسبة إليهم حالة فريدة هو كون الأتراك يتزوجون حتى أربع نساء كما هو محدد في القرآن([82])، غير أن هذا الزواج له حدود شرعية كما لاحظه الرحالة دولابولاي (De la Boulaye) وأن المسلمين جميعاً يحرمون الزواج من الأمهات، وبنات الأب، وبناتهم وأخواتهم وخالاتهم، وعماتهم... وأخواتهم من الرضاعة، وأمهات نسائهم... إلخ([83]). باستثناء هؤلاء يمكن للأتراك أن يتزوجوا ثلاثة أنواع من النساء: نساء من زواج شرعي، نساء يطلق عليهن (Kibin) ثم الإماء. وقد قدم الرحالة الطريقة التي يجري بها الاحتفال بالزواج «إذ تحمل العروس فوق حصان أو هودج يحمله العبيد إلى بيت العريس حيث يقام الاحتفال، فتكون النساء في جناح معزول عن الرجال... إلخ»([84]). كما سجل الرحالة كيف أن العريس قبل أن يدخل بالعروس يصلي ويقرأ بعض الدعوات.

أما بخصوص الطلاق فيلاحظ الرحالة أنه مشروع عند الأتراك سواء عندما يريد الزوج أو عندما تريد الزوجة أيضاً([85]).

الإسلام من خلال الأتراك

إن الحديث عن الإسلام في جميع الرحلات الفرنسية للقرنين السابع عشر والثامن عشر أو

حتى قبل ذلك هو الحديث عن موضوع خاص، إذ الأمر لا يتعلق بموضوع اجتماعي وإنما بالدين الذي هو بمثابة معيار تميز بين المسلمين والمسيحيين، ولذلك نجد الرحالة الفرنسيين يتعاملون بحساسية مفرطة، وفي بعض الأحيان مبالغ فيها عند حديثهم عن الإسلام وعن النبي ﷺ.

إن الحديث عن الإسلام في عمقه هو حديث عن المصدر الأساسي والروحي لحياة المسلمين... فالرحالة يقدمون الدين الإسلامي كما شاهدوه عند الأتراك أو عند باقي الشعوب الإسلامية، لقد أدهشتهم قوة تدين المسلمين، لكنهم يندفعون بقوة في الهجوم على الرسول ﷺ... مكونين بذلك صورة غير موضوعية ومحرفة عن الإسلام ونبي الإسلام. فالرحالة تيفينو الذي يتميز بدقة وصفه للمجتمع التركي يطعن ويعنف في الديانة الإسلامية: «إن دين الأتراك مليء بالسفاهات والسخافات...»([86]). هذا الموقف لم يتغير خلال القرن الثامن عشر، إذ نجد الرحالة تورنوفور على الرغم من علمه وموضوعيته يردد نفس صورة رحالة القرن السابع عشر عن الإسلام: «من بين جميع الديانات الفاسدة، فإن المحمدية (المصطلح الأكثر تداولاً بين الرحالة عن الإسلام) هي الأكثر خطراً...»([87]).

وعلى الرغم من اهتمام الرحالة بالقرآن، فإنهم يزعمون أنه منقول عن اليهودية وعن المسيحية: «إن دين محمد هو أكثر انتشاراً في هذه البلاد، مأخوذ في جزء منه من ديانة موسى، وجزء آخر من المسيحية»([88]). يسجل الرحالة كذلك على أن عقيدة الأتراك أو المسلمين تقوم على توحيد الله: «إن الأتراك يؤمنون ويعبدون إلهاً واحداً...»([89]). كما أنهم يؤمنون بأنبياء الله جميعاً. إلا أنهم يعظمون النبي عيسى تعظيماً كبيراً([90]).

بالإضافة إلى ذلك يعتقد الأتراك – كما لاحظ الرحالة – في اليوم الآخر أي يوم البعث، وبالجنة والنار.

خلاصة القول إذن: إن الرحالة الفرنسيين سواء تعلق الأمر بالإسلام أو بالرسول ﷺ، فإنهم يعتمدون على المخيلة في وضع صورة لهما، ولذلك كانت الصورة التي قدموها صورة محرفة عن الحقيقة وعن الواقع التاريخي وعن العقيدة الدينية للمسلمين.

المؤسسة السياسية العثمانية

لا يقل هذا الموضوع أهمية عن المواضيع السابقة في كتابات رحالة القرنين السابع عشر والثامن عشر، وإن كان هذا الموضوع له خصوصيته بين المواضيع الأخرى، إذ هو يتعلق بالحكم وأنظمة الدولة، بمعنى آخر مستوى الوعي السياسي، وطريقة إدارة الدولة على المستوى العملي، لذلك فجميع الرحالة وبدون استثناء اهتموا بهذا الموضوع. وفضلاً عن الاندهاش والانبهار أمام نظم الدولة العثمانية كثيراً ما عبر الرحالة عن رغبتهم في نقل بعض مظاهر الحكم العثماني، والقضاء، والجيش إلى فرنسا. فكيف إذن قدم هؤلاء الرحالة الحكم العثماني للرأي العام الفرنسي؟ وما هي الصورة التي عكسوها له؟([91]).

السلطان

كل الرحالة كتبوا عن السلطان العثماني "السيد العظيم" (Grand-Seigneur) أو الإمبراطور (Empereur) كما يسميه الرحالة الفرنسيون، فهو يمثل قمة هرم السلطة العثمانية، ويطلق عليه الأتراك السلطان، كل هذه الأسماء تعكس قوته الكبيرة ومكانته([92]).

في الواقع أن الرحالة يقدمون عدة تعريفات للسلطان ليس من خلال الألقاب وإنما كما فعل تورنوفور من خلال الامتيازات التي يتمتع بها والتي تعكس صورة للحكم المطلق وللاستبداد: «فإنه بذلك فقط يتمتع بإرث آبائه... وينظر إلى شعبه كأنهم أحفاد عبيد أجداده»([93]).

ويبدو أن المجال الجغرافي الشاسع الذي يحكمه قد أدهش الرحالة والرأي العام الفرنسي، فحدود تمتد من ناحية الشمال إلى بلاد القرم والتتار، جرجيا وبولونيا، من ناحية الشرق إلى بلاد فارس([94]). ويعتبر الرحالة السلطان الوريث الشرعي لعدة إمبراطوريات وممالك تدخل ضمنها الإمبراطورية البيزنطية.

لقد قدم الرحالة وصفاً جسمانياً لبعض السلاطين (مراد ومحمد) غير أن الذي يهمنا في المقام هو الجانب المعنوي لأن له علاقة بطريقة الحكم والعلاقة بالرعية، فالرحالة تيفينو عند حديثه عن السلطان محمد الرابع يقدم بعض مميزات هذا السلطان: فهو شرير وعنيف، ولا يفكر إلا في الملاهي([95]). ويبدو من هذه الصورة التي يقدمها الرحالة عن السلطان العثماني من خلال بعض

النماذج (محمد الرابع وغيره) قد تم تعميمها على طول فترة القرنين السابع عشر والثامن عشر، ولم يستثنوا منها أحداً منهم، غير أن الوقائع التاريخية لا تنسجم مع هذه الصورة السلبية، وإن كنا نقر أن هناك اختلافاً كبيراً بين سلاطين القرن السادس عشر وما قبله، وسلاطين القرنين السابع عشر والثامن عشر.

الصدر الأعظم

يتفق جميع الرحالة على أن "الصدر الأعظم" أو الوزير العظيم حسب اللقب الأوربي، هو الشخصية الأكثر أهمية في الدولة العثمانية بعد السلطان، وذلك بالنظر إلى المهام التي يترأسها، كالمالية، الشؤون الخارجية، والعدل. «كل قضايا الدولة في يده... يترأس ديوان الدولة، ولا ينقصه إلا اللقب "لقب السلطان"»([96]). وتعكس هذه الصورة عن الصدر الأعظم المكانة الخطيرة التي يحتلها في قلب الدولة، حتى أن الرحالة اعتقدوا بأن سلطاته مطلقة، وأنه أكثر من السلطان من حيث المهام التي يقوم بها، وهذا ما يصوره الرحالة السفير دي هاي دو كورنومان وباندهاش كبير: «إن سلطاته مطلقة، إنه سلطان أكثر من السلطان نفسه، ففي قصره تعالج جميع القضايا، وكل شيء مرتبط به... أعتقد أنه أكثر سعادة من سيده السلطان»([97]).

وعلى الرغم من كل الصلاحيات التي يتمتع بها الصدر الأعظم، فإن الرحالة يقدرون الصعوبات والأخطار التي تحيط بالصدر الأعظم، سواء من طرف المتنافسين على هذا المنصب، أو الأعداء الذين يعملون على عزله أو ربما قتله: «... يعمل الأعداء الأقوياء للوزير لدى السلطان من أجل الحصول على قرار القتل»([98]). غير أن الرحالة يقدرون تقديراً كبيراً بعض الأسماء الكبيرة من الصدر الأعظم الذين تعاقبوا على مثل هذا المنصب، مثل أسرة كوبرلي الذين تركوا بصمة واضحة على الدولة العثمانية خلال القرن السابع عشر([99]).

الجيش (الانكشارية)

الجيش هو أحد العناصر الأساسية في الدولة العثمانية، والذي أولاه الرحالة اهتماماً بالغاً سواء فيما يتعلق بمظهره أو قوته وشجاعته، وهو بدون شك العنصر الذي كان وراء الصورة التي

أعطاها الفرنسيون للأتراك: "قوي مثل تركي" (fort comme un turc) والتي هي أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع: «لا تتأثر أجسامهم بشيء، يعملون ما يشاؤون، ولا أحد يستطيع أن يرفع يده في وجوههم خوفاً على حياته، حتى أنه يعتقد أنهم مقدسون...»([100]). وعلى الرغم من المشاكل والهزائم التي عرفتها الدولة العثمانية خلال القرن الثامن عشر، فإن الرحالة الفرنسيين ظلوا يحملون كل الاعتبار والاحترام للجيش الانكشاري، وذلك بسبب قوته الحديدية ووحدته: «لا يوجد أي شيء أكثر وحدة من الانكشارية، إنها الوحدة الكبرى التي تدعم السلطة، والتي تمنحهم في بعض الأحيان الجرأة لعزل السلطان»([101]). ومما يزيد في قوة الانكشارية المعنويات العالية التي هزت مخلية الرحالة الفرنسيين، وأصابتهم بالدهشة والانبهار، ودفعتهم لمحاولة تفسير ظاهرة حماسة وشجاعة الانكشارية، فبالنسبة للرحالة تيفينو يعتقد: «بأنهم يؤمنون بقوة أنهم إذا كتب عليهم الموت اليوم، فإنهم سيموتون سواء في بيوتهم، أم أثناء القتال. إنه إذا لم يكتب أجلهم، فإن ألف رجل لن يستطيعوا وضع حد لحياتهم... »([102]). ولا يكتفي هذا الرحالة بهذا التفسير فيضيف بأن هذه الظاهرة الروحية والنفسانية تفسر أيضاً بتمسك الانكشارية بالدين: «إنهم شديدوا التمسك بالدين، ويدفعون حياتهم للدفاع عنه أو نشره، معتقدين أنهم يموتون شهداء أثناء القتال ضد أعداء ديانتهم، وبأنهم سيتمتعون بالجنة التي وعدهم بها ربهم، إضافة إلى ذلك فهم يطيعون بشكل أعمى رؤساءهم، ويذهبون حيثما تمّ إرسالهم دون اعتبار إن كانوا سيعودون، كل هذه الأشياء مجتمعة تدفعهم إلى التسابق لمواجهة أخطار الحرب كما يذهبون إلى الأفراح»([103]).

الخلاصة

بعد هذا الاستعراض لمساهمات الرحالة الفرنسيين في التعريف بالأتراك العثمانيين خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، نخلص في النهاية إلى أن أنظار الرحالة الفرنسيين تمركزت حول الشرق بصفة عامة والأتراك بصفة خاصة، الذين يتميزون بخصائص دينية واجتماعية وثقافية وسياسية، بحيث يتحولون إلى موضوع أو تقليد يطبع جميع كتب الرحلات الفرنسية في التاريخ الحديث.

فبعد الاتصال الأول بين الأتراك والفرنسيين خلال القرن السادس عشر، والذي نتج عنه – ولأسباب تاريخية – صورة أسطورية للأتراك وبأنهم وحوش خطيرة... فإن رحالة القرنين السابع

عشر والثامن عشر، وضعوا صورة للأتراك، الجانب الأسطوري فيها أضعف من الواقعية والموضوعية.

فعلى الرغم من التعدد الاثني الذي كان يميز الدولة العثمانية، فإن العنصر التركي يبقى الأكثر امتيازاً، ويحتل أهمية قصوى في كتب الرحلات الفرنسية: بجسمه القوي، الذي ستحوله إلى مثل شعبي في فرنسا لا يزال يردد إلى الآن: "قوي مثل تركي"، وعلى الرغم من ذلك فإن الرحالة يتحدثون إيجابياً عن معنويات الأتراك كأناس طيبين، صرحاء وصادقين.

ويعكس الوصف الذي قدمه الرحالة للمظهر الخارجي للأتراك (اللباس)، ثقافة خاصة من خلال اللباس الفضفاض الذي يخفي العيوب ويترك الجسد في منتهى الحرية، فاللباس الشرقي بالنسبة للرحالة فن له فلسفة خاصة.

أما عن النساء التركيات فإنهن بالنسبة للرحالة مسجونات وعلى الرغم من ذلك فإنهن محترمات، ويهتممن بمظهرهن الخارجي.

ومن خلاف بعض مظاهر الحضارة التركية التي تحدث عنها الرحالة فإنهم لا يختلفون في كون الأتراك قد بلغوا درجة عالية في التطور التقني والاجتماعي، عبروا عنه من خلال طريقة الأكل، وكذلك من خلال الحمامات التي هي أساس النظافة، والشيء نفسه يمكن أن يقال عن العلاقة بين الأفراد (رجل/ رجل) و(رجل/ امرأة)، والتي تعكس الألفة التي أدهشت جميع الرحالة.

أما إذا انتقلنا إلى موضوع الإسلام التركي فإنه لا شيء غير الخيال يؤطر نظرة الرحالة إلى هذا الموضوع، فصورة الإسلام ورسوله محمد ﷺ لدى هؤلاء هي صورة مشوهة، وعلى الرغم من ذلك فإن الرحالة يعترفون بكون الإسلام له تأثير كبير في الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية، في حين أن الأتراك متعلقون بدين الإسلام.

أما فيما يتعلق بالنظام السياسي التركي فإن كتب الرحلات تعكس صورة عن دولة شديدة التنظيم، يحكمها السلطان، غير أن صورته سلبية لأنه شرس عنيف وعاشق للملذات والملاهي. ويبقى الصدر الأعظم صاحب السلطة المطلقة بدون لقب (سلطان) الرجل الأول في الدولة.

أما بخصوص الجيش (الانكشارية)، فبخلاف صورة القرن السادس عشر التي تجعل من

الجيش التركي المعادل للوحشة والبربرية والتخريب، فإن صورته خلال القرن السابع عشر هي صورة القوة والنظام والانضباط. أما خلال القرن الثامن عشر فإن هذا الجيش كان قد فقد الكثير من صورته السابقة.

وهكذا يبدو واضحاً مدى المساهمة الكبيرة التي قدمتها كتب الرحلات الفرنسية للتعريف بالشرق الإسلامي، خاصة الأتراك العثمانيين خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، إلا أن هذه المساهمة يجب التعامل معها بكثير من الحذر لما تحمله في طياتها من تحريفات وتشويهات وأفكار مسبقة خطيرة.

جدول تلخيصي لرحالة القرنين السابع عشر والثامن عشر

الرحالة	المذهب	الاتجاه العلمي	المهنة	هدف الرحلة	تاريخ الرحلة
صافري دو بريف (Cavary de braves)	كاثوليكي	استشراقي دبلوماسي	دبلوماسي	سفارة	1580 م
هنري دوبوفور (H. de beauvau)	كاثوليكي	إنساني	مرتزق ودبلوماسي مغامر		1604 م
دي هاي دو كورنومان Des Hayes de Courneman)	كاثوليكي	تربى بالقصر الملكي إنساني	دبلوماسي		1621 م
فرمانيل (Fermanel)	كاثوليكي	إنساني	مستشار برلماني بمدينة روون مرتزق		1630 م
جان بابتيست تافرنيي (Tavérnier)	البروتسانتية	تجاري علمي تدعمه الخرائط الجغرافية	تاجر	التجارة	1631 م 1663 م
جان كوبان (J. Coppin)	كاثوليكي	ديني	قنصل	زيارة الأماكن المقدسة النصرانية	1638 م 1663 م
جان دولوار (J. Duloir)	كاثوليكي	ديني	أسقف	المغامرة	1639 م

دوبدان (Doubdan)	كاثوليكي	ديني	تاجر	زيارة الأماكن المقدسة النصرانية	1651 م
أرفيو (Ch. Arvieux)	كاثوليكي	إنساني دبلوماسي استشراقي	دبلوماسي أسقف	قنصل بمدينة صيدا عام 1653	1653 م
روبير دودرو (R. De Draux)	كاثوليكي	ديني		زيارة الأماكن المقدسة النصرانية بالإضافة إلى عضو في السفارة	1665 م
دو لاروك (De la Roque)	كاثوليكي	إنساني استشراقي	مغامر	المغامرة والتجارة	1689 م
بول لوكاس (P. Lucas)	كاثوليكي	التجارة	تاجر	بعثة علمية بأمر من الملك لويس الرابع عشر	1700 م

الرحالة	المذهب	الاتجاه العلمي	المهنة	هدف الرحلة	تاريخ الرحلة
تورنوفور (J.P. Tournefort)	كاثوليكي	إنساني ديني علمي	طبيب، أستاذ لعلم النبات	مهمته دبلوماسية	1700 م
البارون دو توت (Baron de Tott)	كاثوليكي	دبلوماسي	دبلوماسي عسكري بالجيش التركي		1755 م
فريير (Ferrieres)	كاثوليكي	عسكري	عسكري سياسي	مهمته دبلوماسية	1782 م
فوليني (Volny)	كاثوليكي	إنساني طبيب	أستاذ التاريخ	الحصول على معرفة استشراقية	1783 م

([1]) سبق لنا أن نشرنا مقالاً خاصاً حول هذا الموضوع تحت عنوان: «العلاقات الفرنسية العثمانية خلال القرن السادس عشر وانعكاساتها المستقبلية: قراءة في معاهدة 1535 م»، مجلة **كلية الآداب** بتطوان، العدد 8، السنة 1998، صص. 79-95.

([2]) De la Jonquière, *Histoire de l'empire Ottoman*, Paris, 1881, p. 223.

أستاذ التاريخ سابقاً بالمدرسة العسكرية كدمبار هاني بالقسطنطينية خلال القرن التاسع عشر.

([3]) هو أخو السلطان بايزيد الثاني، ومنافسه في الحكم، عاش ما بين 1459-1495 م. كان قد سقط بيد فرسان رودس ثم تمَّ تحويله إلى فرنسا ثم روما حيث مات.

([4]) De la Jonquière, *op. cit*., p. 223.

([5]) نصوص ورسائل هذا الموضوع توجد ضمن الوثائق التي نشرها:

E. Charrière, *Négociation de la France dans le levant: collection des documents inédits sur l'histoire de France*, T. 11, Paris, Imprimerie nationale, 1848, 4 vol, p. 285.

وتحمل عنوان:

Confirmation pour Soliman II du traite fait Antérieurement sans la domination des sultans Mamlouks d'Egypte avec les consulats de France à Alexandrie.

([6]) J.Urcu, *Politique Orientale de François 1ère (1515-1547)*, Paris, 1908, pp. 27-28.

([7]) نص الرسالة التي بعث بها الملك فرانسوا الأول إلى السلطان سليمان منشورة هي أيضاً ضمن مجموعة الوثائق التي سبقت الإشارة إليها آنفاً E. Charrière، صص. 113-115.

([8]) نص الرسالة الجوابية منشورة هي أيضاً ضمن مجموعة الوثائق التي نشرها E. Charrière، صص. 116-118.

([9]) E. Charrière, *op. cit*., pp. 114-115.

([10]) De la Jonquière, *op. cit*., pp. 227-228.

([11]) J. Urcu, *op. cit*., p. 97.

([12]) نص بنود هذه المعاهدة منشورة لدى: E. Charrière, *op. cit*., pp. 285-294. ويذكر المؤرخ الفرنسي De la Jonquière أن هذه المعاهدة لا تتضمن سوى سبعة بنود فقط: (De la Jonquière, *op. cit*, p. 237).

([13]) CH. Desplat, *Henri IV et les Ottomans*, Colloque. III, Paris, 1989, p. 398.

([14]) *Ibid*., pp. 398-419.

([15]) حول هذا الموضوع يمكن العودة إلى أطروحتنا لنيل الدكتوراه:

L'Image de l'empire Ottoman à travers les récits de voyages français aux XVII^e^-XVIII^e^ siècles, Thèse de Doctorat.

([16]) Marquis de Bonnac, *Mémoire historique sur l'ambassade de France à Istanbul*, Paris, 1894, pp. 18-23; Saint-Priest, *Mémoire sur l'ambassade de France à la porte Ottomane*, Ed. Schefer, 1894 cér, 8, pp. 83-84.

([17]) *Ibid*., pp. 89-99.

([18]) Rambaut Alfred, *La diplomatie française en Orient au XVIIIe siècle*, R. bleue n° 2, 1887, pp. 134-143.

([19]) Mantrant Robert, *Histoire de l'empire Ottoman*, Paris, Ed. Fayard, 1989, p. 265.

([20]) Rambaut Alfred, *op. cit*., p. 138; Saint-Priest, *op. cit*., pp. 143-144.

([21]) *Ibid*., p. 139.

([22]) *Ibid*., p. 141. انظر: لائحة الرحلات المعتمدة عند نهاية هذه الدراسة، مع جدول تلخيص للرحالة الفرنسيين خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر.

([23]) Mustapha El Ghachi, *Les relations franco-ottomans du XVI^e^ aux XVIII^e^ siècles*, Rev. *Histoire Arabe des études Ottomanes*, n° 11-12 octobre 1995, p. 84.

([24]) *Ibid*., p. 85.

([25]) Des Hayes de Cournemin, *Voyages du Levant fait par le commandent du Roy en l'année 1621*, Paris, 1624, p. 1.

([26]) العنوان الأصلي لهذه الرحلة هو:

Le Bouchier de l'Europe ou la guerre-sainte avec les voyages dans la Turquie, la Thébaïde et la Barbarie.

([27]) Biographie universelle ancienne et moderne/ ouvrage rédigé par la Société de gens de lettres et des savants, Paris, Ed. L.G. Michaud, 1811-1849, p. 262.

([28]) Mustapha El Ghachi, *L'image de l'empire ottoman*, *op. cit.*, p. 66.

([29]) الرحالة الأول كان يعمل بكتدرائية سان بول (Saint-Paul)، وفرنج الإعداد الدينية بسان دوني (Saint-Denis) أما الثاني فهو من تكوين دير سان جاك (Saint Jaques) بباريس.

([30]) Mustapha El Ghachi, *op. cit.*, p. 67.

([31]) *Ibid*, p. 67.

([32]) *Ibid.*

([33]) Mustapha El Ghachi, *op. cit.*, pp. 68-69

([34]) عدد الرحلات التي اعتمدناها في هذه الدراسة يصل إلى 22 رحلة مقابل 19 رحالة، بعض الرحالة لهم أكثر من رحلة 44 % من هؤلاء الرحالة هم من فئة الدبلوماسيين ورجال العلم، و38 منهم من فئة المغامرين، و16 % هم من فئة رجال الدين أو الحجاج، وأخيراً 11 % منهم من فئة التجار، (انظر الأطروحة المشار إليها سابقاً، صص. 47-99).

([35]) نشير في هذا المقام إلى كتاب بالغ الأهمية في هذا الموضوع:

Ouront Henri, *Mission archéologiques françaises aux XVIIe-XVIIIe siècle*, Paris, 1902.

([36]) هذا الرحالة له رحلة تحت عنوان: *Mémoires de Barron de Tott sur les Turc et les* Tartanes, Amsterdam, 1784, 4 vol.

([37]) Mustapha El Ghachi, , *op. cit.*, p. 70.

([38]) Jean Thévénot, *Les relation d'un voyage fait au levant*, Paris, 1664, Préface.

([39]) Volny, *Voyage en Syrie et en Egypte pendant les années 1783-1785*, pp. 21-22.

([40]) Iorga Nicolas, *Les voyageurs français dans l'Orient européen*, Paris, 1928, pp. 60-61.

([41]) Fermanel, Le voyage d'Italie et du Levant de MM Fermanel… contenant la description des royaumes, vie mœurs et nations tant Italiens que les Turcs, Grecs, Arabes, Arméniers, Mores Negres et autres nation. Rouen, 1665, pp. 104-106.

([42]) *Ibid.*

([43]) Des Hayes de cournemin, *op. cit.*, pp. 187-188.

([44]) *Ibid.*

([45]) *Ibid.*, pp. 219-220.

([46]) يمكن الرجوع إلى هذا الموضوع بتفصيل في كتاب المؤرخة الفرنسية:

Yvelise Bernard, *L'orient du XVI^{e} siècle à travers les voyages français*, Paris, 1988, pp. 131-143.

([47]) Jean Thévenot, *Relation d'un voyage fait ou levant*, Paris, 1664, pp. 110-113.

([48]) *Ibid.*

([49]) *Ibid.*

([50]) P. Robert de Dreux, *Voyage en Turquie et en Grèce du R.P.R.D Aumônier de l'Ambassadeur de France (1665-1669) pub*. Est annoté par Hel Pernot, 1925, pp. 71-72.

([51]) Duloir, *Les voyages du Sieur Duloir*; contenant plusieurs lettres écrites du levant, Paris, 1654, p. 166.

([52]) J. Thévènot, *op. cit.*, p. 55.

([53]) *Ibid.*

([54]) *Ibid.*

([55]) *Ibid.*

([56]) *Ibid.*

([57]) Duloir, *op. cit.*, p. 170.

([58]) Arvieux, *Mémoires du chevalier d'Arvieux, envoyé extraordinaire du Roy à la porte*, consul d'Alep, Paris, 1731, p. 433.

([59]) *Ibid.*, p. 424.

([60]) Thévènot, *op. cit.*, p. 105.

([61]) *Ibid.*, pp. 106-107.

([62]) *Ibid.*

([63]) Ferrieres Sauvebeuf, *Mémoires historiques politiques et géographiques*, Paris, 1790, T. 1, p. 23.

([64]) J.B. Travernier, *Nouvelles relations des sérails du G.S. Comprenant plusieurs singularités qui jusqu'ici n'ont point été mises en lumières*, Paris, p. 307.

([65]) Fermanel, *op. cit.*, p. 79.

([66]) Fernieres, *op. cit.*, pp. 24-25.

([67]) Arvieux, *Mémoires*, *op. cit.*, p. 425.

([68]) Duloir, *op. cit.*, p. 182.

([69]) Arvieux, *op. cit.*, pp. 455-460.

([70]) Tournefort, *Relation d'un voyage fait par ordre du Roy*, Paris, 1717, VII, pp. 378-379.

([71]) Tavernier, *op. cit.*, pp. 95-96; Thévènot, *op. cit.*, p. 63.

([72]) J. Thévènot, *Ibid.*, p. 96.

([73]) Diloir, *op. cit.*, p. 181; De la Boullaye le Gouz, *op. cit.*, p. 42.

([74]) Tournefort, *op. cit.*, p. 360.

([75]) De la Boullaye le Gouz, *op. cit.*, p. 42.

في رحلاتهم قدم الرحالة أيضاً أوصافاً دقيقة للشكل الهندسي للحمام، بالإضافة إلى طريقة الاستحمام بشكل مفصل.

([76]) Thévènot, *op. cit.*, p. 57.

([77]) Tournefort, *op. cit*., p. 375.

([78]) Duloir, *op. cit*., pp. 169-172.

([79]) Tournefort, *op. cit*., p. 377.

([80]) *Ibid*., p. 363.

([81]) Baron de Tott, *op. cit*., pp. 26-27.

([82]) *Ibid*.

([83]) La Boullaye le Gouz, *op. cit*., p. 33.

([84]) Duloir, *op. cit*., pp. 170-178.

([85]) Fermanel, *op. cit*., pp. 166-167.

([86]) Thévènot, *op. cit*., p. 71.

([87]) Tournefort, *op. cit*., p. 325.

([88]) Thévènot, *op. cit*., pp. 72-73.

([89]) De la Boullaye le Gouz, *op. cit*., p. 30.

([90]) Thévènot, *op. cit*., p. 73.

في رحلاتهم نجد تفاصيل غزيرة عن رسل الله، عن الجنة وعن النار، وعن أركان الإسلام الخمسة، عن المساجد، وعن الوضوء، وكيفية الصلاة عند المسلمين... إلخ.

([91]) سوف نقتصر في هذا الموضوع على أبرز الوجوه السياسية والإدارية والدينية للدولة فقط.

([92]) Thévènot, *op. cit*., p. 194.

([93]) Tournefort, *op. cit*., p. 285.

([94]) De la Boullaye le Gouz, *op. cit*., p. 46.

([95]) Thévènot, *op. cit.*, p. 115.

([96]) Thévènot, *op. cit.*, pp. 120-121.

([97]) Des hayes de Cournemin, *op. cit.*, pp. 237-297.

([98]) Thévènot, *op. cit.*, p. 123.

([99]) Tournefort, *op. cit.*, p. 293.

([100]) Thévènot, *op. cit.*, p. 133.

([101]) Tournefort, *op. cit.*, pp. 310-311. لقد تمكن الإنكشارية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر من عزل السلطان بايزيد الثاني عام 1512 م، وأحمد الثالث، عام 1595 م وعزلوا السلطان مصطفى الأول عام 1618 م، وقتلوا السلطان عثمان الثاني عام 1622 م، وقتلوا السلطان إبراهيم عام 1649 م.

([102]) Thévènot, *op. cit.*, p. 135.

([103]) *Ibid*., p. 13.